فخرت بنحو ملبوس واكل وذلك فخر ربات الحجول
تفاخرهن في خـد اسيل وفرع من مفارقهـا رسيل
فامجد من ابيك اذا اثرنا عراة كالليوث وكالنصول

قال : فلما اجبته بهذه الابيات نظر الصاحب ابن عباد الى الرجل فقال : كيف ترى ؟ فقال : لو سمعت به ماصدقت؛ قال : فاذن جائزتك ان وجدتك بعدها في مملكتي امرت بضرب عنقك ، ثم قال : لاترون رجلاً يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية يرجع اليها .

وسواء اصح وقوع هذه الحادثة ام كانت ضرباً من مقامات بديع الزمان فانها تصور حب الصاحب للعرب والعربية و بغضه للشعوبية

ما اخذ عليه في اخلاقه وسيرته

حسنات الصاحب كثيرة جداً وما اخذ عليه من الزلات والهنات مروي عن ابي حيان التوحيدي الذي الف كتابا ثلب فيه ابن العميد والصاحب سماه مثالب الوزيرين وابو حيان معروف بالتزيد والوضع والمبالغة لاسيما فيما كتبه على الصاحب فانه تعصب عليه كثيراً وسلبه محاسنه كما يقول ابن خلكان .

وذلك بعد ان صحبه فلم يبلغ منه ما كان يرجوه فتركه مغاضباً . وانا انقل هنا بعض ماذكره ابو حيان من مثالب الصاحب فانها لا تخلو من تفكهة اذا خلت من فائدة .

قال ابو حيان : كان الصاحب لا يرحم الى التأله والرقة والرأفة والرحمة والناس كلهم يحجمون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره وبطشه . شديد العقاب طفيف الثواب طويل العتاب بذيء اللسان يعطي كثيراً قليلا (يعني يعطي الكثير القليل) مغلوب بحرارة الرأس سريع الغضب بعيد الفيئة قريب الطيرة حسود حقود وحسده وقف على اهل الفضل وحقده سار الى اهل الكفاية اما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته واما المنتجعون فيخافون جفوته وقد قتل خلقاً واهلك ناساً ونفى امة نخوة وبغياً وتجبراً وزهواً ومع هذا يخدعه الصبي ويخلبه الغبي لان المدخل عليه واسع والمأتى اليه سهل

وقال : يعمل الصاحب في اوقات كالعيد والفصل شعراً ويدفعه الى ابي عيسى ابن المنجم ويقول له قد نحلتك هذه القصيدة امدحني بها في جملة الشعراء وكن الثالث من المنشدين فيفعل ذلك ابو عيسى وهو بغدادي مخنك قد شاخ على الخدائع وتخنك وينشد

فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ووصفه بلسانه ومدحه من تحبيره اعد يا ابا عيسى فانك والله مجيد زه يا ابا عيسى قد صفا ذهنك وجادت قريحتك وتنقحت قوافيك ليس هذا من الطراز الاول حين انشدتنا في العيد الماضي ، مجالس تخرج الناس وتهب لهم الذكاء وتزيدهم الفطنة وتحول الكودن عتيقا والمحمر جواداً .ثم لا يصرفه عن مجلسه الا بجائزة سنية وعطية هنيئة ويغايظ الجماعة من الشعراء وغيرهم لانهم يعلمون ان ابا عيسى لا يقرض مصراعا ولا يزن بيتا ولا يذوق عروضا .

قال يوما من في الدار ؟ فقيل له ابو القاسم الكاتب وابن ثابت فعمل في الحال بيتين وقال لانسان بين يديه اذا اذنت لهذين فادخل بعدهما بساعة وقل قد قلت بيتين فان رسمت لي انشادهما انشدتهما وازعم انك بدهت بهما ولا تجزع من تأفني بك ولا تفزع من تكبري عليك ودفع البيتين اليه وامره بالخروج الى صحن الدار واذن للرجلين حتى وصلا فلما جلسا وانسا دخل الآخر على ثفيئتهما ووقف للخدمة واخذ يتلمظ يري انه يقرض شعراً ثم قال يا مولانا قد حضرني بيتان فان اذنت انشدت قال له انت انسان اخرق سخيف لا تقول شيئا فيه خير اكفني امرك

وشعرك قال يا مولانا هي بديهتي وان كسرتني ظلمتني وعلى كل حال فاسمع فان كانا بارعين والا فعاملني بما تحب قال انت لحوح هات فانشد :

يا ايها الصاحب تاج العلا لا تجعلني نزهة الشامت
بملحد يكنى ابا قاسم ومجبر يعزي الى ثابت

فقال : قاتلك الله لقد احسنت وانت مسيء . قال لي ابو القاسم : وكدت انفقأ غيظاً لأني علمت انها من فعلاته المعروفة وكان ذلك الجاهل لا يقرض بيتاً ثم حدثني الخادم الحديث بقضه . والذي غلطه في نفسه وحمله على الاعجاب بفضله والاستبداد برأيه اذ لم يجبه قط بتخطئة ولا قوبل بتسوئة لانه نشأ على ان يقال اصاب سيدنا وصدق مولانا ولله دره ما رأينا مثله من ابن عبد كان مضافاً اليه ومن ابن ثوابة نقيسه عليه ومن ابرهيم بن العباس الصولي من صريع الغواني من اشجع السلمي اذا سلك طريقهما قد استدرك مولانا على الخليل في العروض وعلى ابي عمرو بن العلاء في اللغة وعلى ابي يوسف في القضاء وعلى الاسكافي في الموازنة وعلى ابن نوبخت في الآراء والديانات وعلى ابن مجاهد في القراآت وعلى ابن جرير في التفسير

وعلى ارسطاطاليس في المنطق وعلى الكندي في الجزو وعلى ابن سيرين في العبارة وعلى ابي العيناء في البديهة وعلى ابن ابي خالد في الخط وعلى الجاحظ في الحيوان وعلى سهل بن هرون في الفقر وعلى يوحنا في الطب وعلى ابن زين في الفردوس وعلى عيسى بن كلب في الرواية وعلى الواقدي في الحفظ وعلى النجار في البدل وعلى ابن ثوابة في الثقفية وعلى السري السقطي في الخطرات والوساوس وعلى مزيد في النوادر وعلى ابي الحسن العروضي في استخراج المعمى وعلى بني برمك في الجود وعلى ذي الرئاستين في التدبير وعلى سطيح في الكهانة وعلى ابي المحياة خالد بن سنان في دعواه . هو والله اولى بقول ابي شريح اوس بن حجر التميمي في فضالة بن كلدة ابي دليجة :

الالمعي الذى يظن لك الظ ن كأن قد رأى وقد سمعا

فتراه عند هذا الهذر واشباهه يتلوى ويبتسم ويطير فرحاً به وينقسم ويقول ولا كذي ثمرة السبق لهم وقصرنا ان نلحقهم او نقفو اثرهم وهو في ذلك يتشاجى ويتحايك ويلوي شدقه ويتبلع ريقه ويردّ كالآخذ ويأخذ كالمتمنع ويغضب في عرض الرضى ويرضى في لبوس الغضب ويتهالك ويتمالك ويتفانك

ويتمايل ويحاكي الموسمات ويخرج في اصحاب السماجات وهو مع هذا يظن انه خاف على نقاد الاخلاق وجهابذة الاحوال وقد افسده أيضاً ثقة صاحبه به وتعويله عليه وقلة سماعه من الناصح فيه ..... والله لو ان عجوزا بلهاء او امة ورهاء اقيمت مقامه لكانت الامور على هذا السياق لانه قد امن ان يقال له لم فعلت ولم لم تفعل وهذا باب لايتفق لاحد من خدم الملوك الا بجد سعيد . ولقد نصح صاحبه الهرويُ في اموال تاوية وامور من النظر عارية فقذف بالرقعة اليه حتى عرف ما فيها ثم قتل الرافع خنقاً هذا وهو يدين بالوعيد .

وقال لي الثقة من اصحابه ربما شرع في امر يحكم فيه بالخطأ فيقلبه جده صواباً حتى كأنه عن وحي واسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفية ولو جرت الامور على موضوع الرأي وفضيلة العقل لكان معلماً في مصطبة على شارع او في دار لتان فانه يخرج الانسان بتفيهقه وتشادقه واستحقاره واستكباره واعادته وابدائه وهذه اشكال تعجب الصبيان ولا تنفرهم عن المعلمين ويكون فرحهم به سبباً للملازمة والحرص على التعلم والحفظ والرواية والدراسة .

قال ابو حيان: وكان ابن عباد يقول للانسان اذا قدم عليه من أهل العلم يا أخي تكلم واستأنس واقترح وانبسط ولا تُرَعْ واحسبني في جوف مربعة ولا يروعك هذا الحشم والخدم والغاشية والحاشية وهذه المرتبة والمصطبة وهذا الطاق والرواق وهذه المجالس والطنافس فان سلطان العلم فوق سلطان الولاية فليفرخ روعك ولينعم بالك وقل ما شئت وابصر ما اردت فلست تجد عندنا الا الانصاف والاسعاف والاتحاف والاطراف والمواهبة والمقاربة والمؤانسة والمقابسة . ومن كان يحفظ ما كان يهذي به في هذا وفي غيره ويجري في هذا الميدان فيطيل حتى اذا استوفى ما عند ذلك الانسان بهذه الزخارف والحيل وسار الرجل معه في حدوره على مذهب الثقة فحاجه وضايقه وسابقه ووضع يده على النكتة الفاصلة والامر القاطع تنمر له وتغير عليه ثم قال يا غلام خذ بيد هذا الكلب الى الحبس وضعه فيه بعدان تصب على كاهله وظهره وجنبيه خمسمائة سوط وعصا فانه معاند ضد يحتاج ان يشد بالقد ساقط هابط كلب وقاح اعجبه صبري وغره حلمي ولقد اخلف ظني وعدت على نفسي بالتوبيخ وما خلق الله العصا باطلاً فيقام ذلك البائس

على هذه الحالة وليس الخبر كالعيان من لم يحضر ذلك المجلس لم ير منظراً رفيعاً ورجلاً رفيعاً .

وقال ابو حيان: حدثني الجرباذقاني الكاتب ابو بكر وكان كاتب داره قال يبلغ من سخنة عين صاحبنا انه لا يسكت عما لا يعرف ولا يسالم نفسه فيما لا يفي به ولا يكمل له ويظن انه ان سكت فطن لنقصه وان احتال وموه جاز ذلك وخفي واستتر ولا يعلم ان ذلك الاحتيال طريق الى الاغراء بمعرفة الحال وصدق القائل كاد المريب يقول خذني . وقلت وما الذي حداك على هذه المقدمة ؟ قال قال لي في بعض هذه الايام : ارفع حسابك فقد اخرته وقصرت فيه وانتهزت سكوتي وشغلي بامر الملك وسياسة الاولياء والجند والرعايا والمدن وما عليّ من اعباء الدولة وحفظ البيضة ومشارفة الاطراف النائية والدانية باللسان والعلم والرأي والتدبير والبسط والقبض والتتبع والنفض وما على قلبي من الفكر في الاموال الظاهرة والغامضة وهذا باب لعمري مطمع و مساكي عنه مغر بالفساد مولع فبادر عافاك الله الى عمل حساب بتفصيل باب باب يبين فيه امر داري وما دخل عليه امر دخلي وخرجي . قلت له هذا كله بسبب قوله هات حسابك

بما نراعيه ؟ فقال أي والله ولقد كان أكثر من هذا ولقد اختصرته . قال ابو بكر فتفردت اياماً وحررت الحساب على قاعدته واصله والرسم الذي هو معروف بين اهله وحملته اليه فأخذه من يدي وامرّ عينيه فيه من غير تثبت او فحص او مسأله فحذف به اليّ وقال : اهذا حساب ؟ اهذا كتاب ، اهذا تحرير ، اهذا تقرير ، اهذا تفصيل ، اهذا تحصيل ، والله لولا اني ربيتك في داري ، وشغلت بتخريجك ليلي ونهاري ، ولك حرمة الصبي ، ويلزمني رعاية الآباء ، لاطعمتك هذا الطومار ، واحرقتك بالنفط والقار ، وادبت بك كل كاتب وحاسب ، وجعلتك مثلة لكل شاهد وغائب ، امثلي يموه عليه ؟ ويطمع فيما لديه ، وانا خلقت الحسابة والكتابة ، والله ما انام ليلة الا واحصل في نفسي ارتفاع العراق ، ودخل الآفاق ، اغرك مني أني اجررت رسنك ؟ واخفيت قبيحك وابديت حسنك ، غيرّ هذا الذي رفعت ، واعرف قبل وبعد ما صنعت ، واعلم انك من الآخرة قد رجعت ، فزد في صلاتك وصدقتك ، ولا تعول على فتك وصلابة حدقتك . قال فوالله ماهالني كلامه ولا احاك فيّ هذيانه لاني كنت أعلم جهله في الحسابة ونقصه في هذا الباب .

فذهبت وافسدت واخرت وقدمت و كابرت وتعمدت ثم رددته اليه فنظر فيه وضحك في وجهي وقال : احسنت بارك الله عليك هكذا اردت وهذا بعينه طلبت لو تغافلت عنك في اول الامر لما تيقظت في الثاني . فهذا كما ترى اعجب منه كيف شئت .

وقال ابو حيان : قال لي علي بن الحسن الكاتب هجرني « الصاحب » فى بعض الايام هجراً اضر بي و كشف مستور حالي وذهب على امري ولم اهتد الى وجه حيلة في مصلحتي وورد المهرجان فدخلت عليه في غمار الناس فلما انشد نوبتين تقدمت فانشدت فلم يهش لي ولم ينظر الي و كنت ضمنت ابياتي بيتاً له من قصيدة على روي قصيدتي فلما مرّ به البيت هب من كسله ونظر الي كالمنكر علي فطأطأت رأسي وقلت بصوت خفيض لا تلم ولا تزد في القرحة فما علي محمل وانما سرقت هذا من قافيتك لازين به قافيتي وانت بحمد الله تجود بكل علق ثمين وتهب كل در مكنون اتراك تشاحني على هذا القدر وتفضحني في هذا المشهد ؟ فرفع رأسه وصوته وقال : يا بني اعد هذا البيت فاعدته فقال : احسنت يا هذا ارجع الى اول قصيدتك فقد سهونا عنك وطار الفكر بنا الى شأن آخر والدنيا مشغلة وصار ذلك

ظلما بغير قصد منا ولا تعمد . قال فاعدتها وامررتها وفغرت فمي بقوافيها فلما بلغت آخرها قال : أحسنت الزم هذا الفن فانه حسن الديباجة وكأن البحتري استخلفك واكثر بحضرتنا وارتفع بخدمتنا وابذل نفسك في طاعتنا نكن من وراء مصالحك باداء حقك والجذب بضبعك والزيادة في قدرك على اقرانك . قال فلم ار بعد ذلك الا الخير حتى عراه ملل آخر فوضعني في الحبس سنة وجمع كتبي فاحرقها بالنار وفيها كتب الفراء والكسائي ومصاحف القرآن واصول كثيرة في الفقه والكلام فلم يميزها من كتب الاوائل وامر بطرح النار فيها من غير تثبت بل لفرط جهله وشدة نزقه فهلا طرح النار في خزانته وفيها كتب ابن الراوندي وكلام ابن ابي العوجاء في معارضة القرآن بزعمه وصالح بن عبد القدوس وابي سعيد الحصيري وكتب ارسطاطاليس وغير ذلك ولكن من شاء حمق نفسه.

وقال الصاحب يوماً : صدر قول الشاعر ؟

والمورد العذب كثير الزحام

فسكتت الجماعة فقال ابن الداري :

يزدحم الناس على بابه

فاقبل عليه بغيظ وقال ما عرفتك الا متعجرفاً جاهلاً اما كان لك بالجماعة اسوة ؟

وعن ابي حيان : لقد بلغ من ركاكته (الصاحب) انه كان عنده ابو طالب العلوي فكان اذا سمع منه كلاماً يسجع فيه وخبراً ينمقه ويرويه يبلق عينيه وينشر منخريه ويري انه قد لحقه غشي حتى يرش على وجهه ماء الورد فاذا افاق قيل وما اصابك ما عراك ما الذي نالك وتغشاك؟ فيقول ما زال كلام مولاي يروقني و يؤنقني حتى فارقني لبي وزايلني عقلي وانشرحت مفاصلي وتخاذلت عرى قلبي وذهل ذهني وحيل بيني وبين رشدي فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفش ويضحك عجباً وجهلا ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بني ابيه وعمه . ومن ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن اشبه وبالصبيان الضعاف امثل .

مرّ بك ان الصاحب تأثم من ان يجرب شراباً مشكوكا بسمه بدجاجة لان التمثيل بالحيوان غير جائز وانه رغب الى فخر الدولة ان يعفيه من الوزارة للتوفر على امر المعاد ومع ذلك فقد روى الوزير ظهير الدين في كتابه ذيل تجارب الامم ان فخر الدولة لما انتظم له الامر عمل هو والصاحب جميعاً على اخذ علي بن

كامة والاستيلاء على ماله واعماله وعلما انهما لا يقدران عليه لجلالة قدره فعدلا الى اعمال الحيلة في امره واجتمع رأيهما على مواقفة شرابي كان له على سمه فتوصلا اليه وقررا امور ذلك واتفق ان علي بن كامة عمل دعوة واحتفل فيها واحتشد وسأل فخر الدولة والصاحب الحضور عنده فواعداه بذلك وراسلا الشرابي بفعل ما تقرر معه في هذا اليوم واعطياه سماً موجباً . ودخل علي بن كامة خزانة الشراب يتخير الاشربة ويذوقها فطرح الشرابي السم في بعض ما ذاقه فاحس في الحال باضطراب جسمه فدخل بيتاً وطرح نفسه فيه والقى عليه كساء وعلم فخر الدولة خبره فتأخر عن الحضور .

قال الوزير ظهير الدين : وليس العجب من فخر الدولة في سم الرجل كالعجب من الصاحب الذي سأل بالامس في الاذن له في ملازمة داره والتوفر على امر المعاد .

ولا يمكن تفسير ذلك الا بانه احدى الضرورات السياسية التي تتعدى حدود الدين والعدل والانسانية . وفي عصرنا من رجال السياسة من يهون عليه سم امة باسرها لا سم فرد منها .

اخبار الصاحب

شعراؤه

لم يجتمع بباب وزير ما اجتمع بباب الصاحب من الشعراء ولم يمدح احد بمقدار ما مدح به من القصائد قال ابن بابك سمعت الصاحب يقول: « مدحت والعلم عند الله بمائة الف قصيدة شعرا عربية وفارسية وقد انفقت اموالي على الشعراء والادباء والزوار والقصاد ما سررت بشعر ولا سرني شاعر كما سرني ابو سعيد الرستمي الاصفهاني بقوله :

ورث الوزارة كابراً عن كابر مرفوعة الاسناد بالاسناد
يروي عن العباس عباد وزا رته واسمعيل عن عباد»

وقال الثعالبي : ... « احتف به من نجوم الارض وافراد العصر وابناء الفضل وفرسان الشعر من يربي عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الاخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني فانه لم يجتمع بباب احد من الخلفاء والملوك مثل مااجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كابي نواس وابي العتاهية والعتابي والنمري ومسلم بن الوليد وابي الشيص ومروان

ابن ابي حفصة ومحمد بن مناذر وجمعت حضرة الصاحب باصبهان والري وجرجان مثل ابي الحسن السلامي وابي بكر الخوارزمي وابي طالب المأموني وابي الحسن البديهي وابي سعيد الرستمي وابي القاسم الزعفراني وابي العباس الضبي والقاضي الجرجاني وابي القاسم بن ابي العلاء وابي محمد الخازن وابي هاشم العلوي وابي حسن الجوهري وبني المنجم وابن بابك وابن القاشاني وابي الفضل الهمذاني واسمعيل الشاشي وابي العلاء الاسدي وابي الحسن الغويري وابي دلف الخزرجي وابي حفص الشهرزوري وابي معمر الاسمعيلي وابي الفياض الطبري وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم اوذهب عني اسمه ومدحه مكاتبة الشريف الرضي الموسوي وابو اسحق الصابي وابن حجاج وابن سكرة وابن نباتة »

وقال : حدثني ابو عبد الله محمد بن حامد الحامدي قال عهدي بابي محمد الخازن ماثلا بين يدي الصاحب ينشده قصيدة له فيه اولها :

هذا فؤادك نهبى بين اهواء ... وذاك رأيك شورى بين آراء

هواك بين العيون النجل مقتسم ... داء لعمرك ما ابلاه من داء

لا تستقر بارض او تسير الى ... أخرى بشخص قريب عزمه ناء

يوماً بخزوى ويوماً بالعقيق وبا ... لا مذيب يوماً و يوماً بالخليصاء

وتارة تنتحي نجـدا وآونة شعب العقيق وطوراً قصر تيماء

قال فرأيت الصاحب مقبلاً عليه بمجامعه حسن الاصغاء الى انشاده مستعيداً اكثر ابياته مظهراً من الاعجاب به والاهتزاز له ما يعجب الحاضرين فلما بلغ الى قوله :

ادعى باسماء نبزا في قبائلها كأن اسماء اضحت بعض اسمائي

اطلعت شعري والقت شعرها طربا فاقـا بين اصبـاح وامساء

زحف عن دسته طربا فلما بلغ قوله في المدح :

لو ان سحبان باراه لاسحبه على خطابته اذيال فأفاء

ارى الاقاليم قد القت مقالدها اليه مستبقات اي القـاء

فساس سبعتها منـه باربعة امر ونهي وتثبيت وامضاء

كذاك توحيده الورى باربعة كفر وجبر وتشبيه وارجاء

جعل يحرك رأس مستحسن فلما انشد :

نعم تجنب لا يوم العطاء كما تجنب ابن عطاء لثغة الراء

استعاده وصفق بيديه ولما ختمها بهذه الابيات :

اطري واطرب بالاشعار انشدها احسن ببهجة اطرابي واطرائي

ومن منـائح مولانا مـدائحه لان من زنده قدحي وايرائي

فخذ اليـك ابن عبـاد محبرة لا البحتري يدانيها ولا الطائي

قال احسنت احسنت ولله انت وتناول النسخة وتشاغل باعارته نظره ثم امر له بخلعة وحملان وصلة ٠

و كان من عادة الصاحب ان يقترح على شعرائه النظم في مواضيع يعينها لهم في الجد والهزل وفي ذلك من استجاشة القرائح للنهوض بالادب ما فيه كاقتراحه عليهم وصف الدار التي بناها في اصبهان ووصف الفيل الذي حصل عليه في واقعة جرجان وقد سبقت الاشارة اليهما في موضعهما. ومن المواضيع الهزلية التي اقترح على شعرائه نظمها رثاء برذون ابي عيسى ابن المنجم وقد سمى الثعالبي هذه القصائد البرذونيات قال في يتيمة الدهر[1] : لما نفق برذون ابي عيسى ابن المنجم باصبهان و كان اصدى قد حمله الصاحب عليه وطالت صحبته له اوعز الصاحب الى الندماء المقيمين في جملته ان يعزوا ابا عيسى ويرثوا اصداه فقال كل منهم قصيدة فريدة ٠ ثم نقل قصيدة ابي القاسم الزعفراني وابي الحسن الجرجاني وابي القاسم بن ابي العلاء وابي الحسن السلامي وابي محمد الخازن وابي سعيد الرستمي وابي العباس الضبي وابي دلف الخزرجي وابي محمد محمود وابي عيسى وغيرهم ٠

(١) ج ٣ ص ٥٥

وترى كثيراً من القصائد التي مدح بها في الجزء الثالث من يتيمة الدهر للثعالبي وهو مع ذلك لم يسلم من الهجاء قال ياقوت في معجم الادباء قال بعض الشعراء في ابن عباد يذم سجعه وخطه وعقله :

متلقب كافي الكفاة وانما هوفي الحقيقة كافر الكفار
السجع سجع مهوس والخط خط منقرس والعقل عقل حمار

وقال ابو العلاء الاسدى يهجوه :

اذا رأيت مسجى في مرقعة يأوي المساجد حرا ضره بادي
فاعلم بان الفتى المسكين قد قذفت به الخطوب الى لؤم ابن عباد

وقال ابو بكر الخوارمي :

لاتحمدن ابن عباد وان هطلت كفاه يوماً ولا تذممه ان حرما
فانها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

فلما مات الخوارزمي بلغ الصاحب وفاته فقال:

اقول لركب من خراسان رائح امات خوارزميكم قيل لي نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره الا لعن الرحمن من كفر النعم

الصاحب وابو حيان التوحيدي

مائة الف قصيدة مدح بها الصاحب ومئات من الشعراء [1] يطوفون بسدته مشيدين بفضله ومثلهم من شعراء الاقطار يتغنون بمديحه على بعد الديار ولكن هذا كله لم يرفع من ذكره بمقدار ما وضع من شأنه ابو حيان التوحيدي في كتابه مثالب الوزيرين «ابن العميد والصاحب ابن عباد» فان البقية الباقية من هذا الكتاب فرت جلد الصاحب وكسته سبة الدهر وجعلته هزأة واعجوبة في الرقاعة وكانت محنة الصاحب بابي حيان من اسوأ المحن [2]

قال ابو حيان : واما حديثي معه يعني مع ابن عباد فانني حين وصلت اليه قال لي ابو من ؟ قلت ابو حيان فقال بلغني انك تتأدب فقلت تأدب اهل الزمان فقال ابو حيان ينصرف اولا

---

(١) قال الصاحب مدحت بمائة الف قصيدة وقال ياقوت في معجم الادباء : مدح الصاحب ابن عباد خمسمائة شاعر من ارباب الدواوين ج ٢ ص ٣١٤

(٢) قال ياقوت في معجم الادباء : كان ابوحيان قصد ابن عباد الى الري فلم يرزق منه فرجع عنه ذاماله وكان ابو حيان مجبولا على الغرام بثلب الكرام ج ٢ ص ٢٨٢

ينصرف قلت ان قبله ،ولانا لا ينصرف فلما سمع هذا تنمر وكأنه لم يعجبه واقبل على واحد الى جانبه وقال له بالفارسية سفها على ما قيل لي ثم قال الزم دارنا وانسخ هذا الكتاب فقلت انا سامع مطيع . ثم اني قلت لبعض الناس في الدار مسترسلا انما توجهت من العراق الى هذا الباب وزاحمت منتجعي هذا الربيع لاتخلص من حرفة الشؤم فان الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة فنمى اليه هذا او بعضه او على غير وجهه فزاده تنكرا .

قال ابو حيان : طلع ابن عباد علي يوماً في داره وانا قاعد في كسر ايوان اكتب شيئاً قد كان كادني به فلما ابصرته قمت قائماً فصاح بحلق مشقوق اقعد فالوراقون اخس من ان يقوموا لنا فهممت بكلام فقال لي الزعفراني الشاعر اسكت فالرجل رقيع فغلب عليّ الضحك واستحال الغيظ تعجباً من خفته وسخفه لانه كان قد قال هذا وقد لوى شدقه وشنج انفه وامال عنقه واعترض في انتصابه وانتصب في اعتراضه وخرج في تفكك مجنون قدافلت من دير حنون والوصف لا يأتي على كنه هذه الحال لان حقائقها لا تدرك الا باللحظ ولا يؤتى عليها باللفظ .

وقال ابو حيان : قال الصاحب يوماً فعلٌ وافعالٌ قليل

وزعم النحويون انه ما جاء الا زنـد وازناد وفرخ وافراخ وفرد وافراد فقلت له انا احفظ ثلاثين حرفاً كلها فعل وافعال فقـال هات يا مدعي فسردت الحروف ودللت على مواضيعها من الكتب ثم قلت ليس للنحوي ان يلزم مثل هذا الحكم الا بعد التبحر والسماع الواسع وليس للتقليد وجه اذا كانت الرواية شائعـة والقياس مطرداً وهذا كقولهم فعيل على عشرة اوجه وقد وجدته انا يزيد على اكثر من عشرين وجهاً وما انتهيت في التتبع الى اقصاه . فقال خروجك من دعواك في فعل يدلنا على قيامك في فعيل ولكن لا نأذن لك في اقتصاصك ولا نهب آذاننا لكلامك ولم يف ما اتيت به بجرأتك في مجلسنا وتبسطك في حضرتنا .

وقال ابو حيان قال لي ابن عباد يوماً يا ابا حيان من كناك بابي حيان قلت اجل الناس في زمانه واكرمهم في وقته قال ومن هو ويلك قلت انت قال ومتى كان ذلك قلت حين قلت يا ابا حيان من كناك اباحيان فاضرب عن هذا الحديث واخذ في غيره على كراهة ظهرت عليه . قال وقال لي يوماً آخر وهو قائم في صحن داره والجماعة قيام منهم الزعفراني وكان شيخاً كثير الفضل جيد الشعر ممتع الحديث والتميمي المعروف بسطل وكان من مصر والاقطع

وصالح الوراق وابن ثابت وغيرهم من الكتاب والندماء يا أبا حيان هل تعرف فيمن تقدم من يكنى بهذه الكنية قلت نعم من أقرب ذلك أبو حيان الدارمي حدثنا أبو بكر محمد بن محمد القاضي الدقاق قال حدثنا ابن الانباري قال حدثنا ابي قال حدثنا ابن ناصح قال دخل ابو الهذيل العلاف على الواثق فقال له الواثق لمن تعرف هذا الشعر :

سبـاك من هاشم سليل ليس الى وصله سبيل
من يتعاط الصفـات فيه فالقول في وصفه فضول
للحسن في وجهه هلال لا عين الخلق لا يزول
وطرة ما يزال فيهـا لنور بدر الدجى مقيل
ماختال في صحن قصر اوس الا ليسجى له قتيل
فان يقف فالعيون نصب وان تولى فهن حول

فقال ابو الهذيل يا أمير المؤمنين هـذا لرجل من اهل البصرة يعرف بابي حيان الدارمي وكان يقول بامامة المفضول وله من كلمة يقول فيها :

افضله والله قدمه على صحـابته بعد النبي المكرم
بلا بغضة والله مني لغيره ولكنه اولاهم بالتقدم

وجماعة من اصحابنـــا قالوا أنشد ابو قلابة عبد الله بن محمد الرقاشي لابي حيان البصري :

يا صاحبي دعا الملام واقصرا ترك الهوى يا صاحبي خساره
كم لمت قلبي كي يفيق فقال لي لجت يمين مـالهـا كفاره
الا افيق ولا افتر لحظـة ان انت لم تعشق فانت حجاره
الحب اول ما يكون بنظرة وكذا الحريق بداؤه بشراره
يا من احب ولا اسمي باسمها اياك اعني فاسمعي يا جاره

فلما وفيت الشعر ورويت الاسـناد وربقي بليل ولساني طلق ووجهي متهلل وقد تكلفت هذا وانا في بقية من غرب الشباب وبعض ريعانه وملأت الدار صياحا بالرواية والقافية حين انتهيت انكرت طرفه وعلمت سوء موقع ما رويت عنده . قال ومن تعرف ايضاً ؟ قلت روى الصولي فيما حدثنا عنه المرزباني ان معاوية لما احتضر انشد يزيد عند رأسه متمثلا :

لو ان حيا نجا لفات ابو حيان لا عاجز ولا وكل
الحول القلب الاريب وهل يدفع صرف المنية الحيـل

قال الصولي وهذا كان من المعمرين المغفلين وانتهى الحديث من غير هشاشة ولا هزة ولا اريحية بل على اكفهرار وجه ونبو

طرف وقلة تقبل . وجرت اشياء اخر كان عقباها اني فارقته بابه سنة ٣٧٠ راجعاً الى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهما واحداً ولا ما قيمته درهم واحد احمل هذا على ما اردت ولما نال مني هذا الحرمان الذي قصدني به واحفظني عليه وجعلني من جميع حاشيته فرداً اخذت املأ في ذلك بصدق القول عنه وسوء الثناء عليه والبادئ اظلم وللامور اسباب وللاسباب اسرار والغيب لا يطلع عليه ولا قارع لبابه .

وقال ابوحيان : قال لي الصاحب يوماً وهو يحدث عن رجل اعطاه شيئاً فتلكأ في قبوله « ولا بد من شيء يعين على الدهر » ثم قال : سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندهم . قلت انا احفظ ذاك ، فنظر بغضب فقال : ما هو؟ قلت نسيت ، فقال ما اسرع ذكرك من نسيانك ، قلت ذكرته والحال سليمة فلما استحال عن السلامة نسيت ، قال وما حيلولتها ؟ قلت نظر الصاحب بغضب فوجب في حسن الادب الا يقال ما يثير الغضب قال ومن تكون حتى نغضب عليك دع هذا وهات . قلت قول الشاعر :

الام على اخذ القليل وانما اصادف اقواماً أقل من الذر
فان انا لم آخذ قليلاً حرمته ولا بد من شيءٍ يعين على الدهر
فسكت ٠

قال ابو حيان عند قربه من فراغ كتابه في ثلب الوزيرين وقد حكى عن ابن عباد حكايات واسندها الى من اخبره بها عنه ثم قال : فما ذنبي اكرمك الله اذا سألت عنه مشايخ الوقت واعلام العصر فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان على اني قد سترت شيئاً كثيراً من مخازيه اما هربا من الاطالة أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش وبث الفضائح وذكر مايسمج مسموعه ويكره التحدث به هذا سوى ما فاتني من حديثه فاني فارقته سنة ٣٧٠ ٠ وما ذنبي ان ذكرت عنه ماجرعنيه من مرارة الخيبة بعد الامل وحملني عليه من الاخفاق بعد الطمع مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل والظن الحسن حتى كأني خصصت بخساسته وحدي او وجب ان اعامل به دون غيري ٠ قدم الي نجاح الخادم وكان ينظر في خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال يقول لك مولانا انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان فقلت بعد ارتياع : هذا طويل ولكن لو أذن لي لخرجت منه فقراً كالغرر وشذوراً

كالدرر تدور في المجالس كالشامات والدستبويات لو رقي بها مجنون لأفاق او نفث على ذي عاهة لبريء لاتمل ولا تستغث ولا تعاب ولا تسترك · فرفع ذلك اليه وانا لا أعلم فقال طعن في رسائلي وعابها ورغب عن نسخها وازرى بها والله لينكرن مني ما عرف وليعرفن حظه اذا انصرف ؛ حتى كأني طعنت في القرآن أو رميت الكعبة بخرق الحيض أو عقرت ناقة صالح او سلحت في بئر زمزم أو قلت كان النظام مأبونًا أو مات أبوهاشم في بيت خمار أو كان عباد معلم صبيان · وماذنبي ياقوم اذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هذا الذي يستحسن هذا الكلب حتى أعذره في لومي على الامتناع اينسخ انسان هذا القدر وهو يرجو بعدها أن يمتعه الله ببصره أو ينفعه ببدنه · ثم ما ذنبي اذا قال لي من أين لك هذا الكلام المفوف المثوف الذي تكتب به الي في الوقت بعد الوقت ؟ فقلت وكيف لا يكون كما وصف وأنا أقطف ثمار رسائله واستقي من قليب علمه واشيم بارقة أدبه وارد ساحل بحره واستوكف قطر مزنه · فيقول كذبت وفجرت لا أم لك ومن أين لي في كلامي الكدية والشحذ والتضرع والاسترحام كلامي في السماء وكلامك في السماد · هذا أيدك الله

وان كان دليلاً على سوء جدي فانه دليل أيضاً على انخلاعه وخرقه وتسرعه ولؤمه .

بل ما ذنبي اذا قال لي هل وصلت الى ابن العميد أبي الفتح فاقول نعم رأيته وحضرت مجلسه وشاهدت ما جرى له و كان من حديثه فيما مدح به كذا و كذا وفيما تقدم منه كذا و كذا وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا و كذا ووصل أبا سعيد السيرافي بكذا و كذا ووهب لأبي سليمان المنطقي كذا و كذا فينزوي وجهه و ينكر حديثه و ينجذب الى شيء آخر ليس مما شرع فيه ولا مما حرك له ثم يقول اعلم انك انما انتجعته من العراق فاقرأ عليّ رسالتك التي توسلت اليه بها واسهبت مقرظاً له فيها فاتمانع فيأمر و يشدد فاقرأها فيتغير و يذهل . ثم يقال لي من بعد جنيت على نفسك حين ذكرت عدوه عنده بخير واثنيت عليه وجعلته سيد الناس .

وقال ابو حيان : وكان ابن عباد شديد الحسد لمن أحسن القول واجاد اللفظ و كان الصواب غالباً عليه وله رفق في سرد حديث ونيقة في رواية له وله شمائل مخلوطة بالدماثة بين الاشارة والعبارة وهذا شيء عام في البغداديين وكالخاص في غيرهم .

حدثت ليلة بحديث فلم يملك نفسه حتى ضحك واستعاده ثم قيل لي بعده انه كان يقول قاتل الله أبا حيان فانه نكد وانه وانه واكره ان اروي ذمي بقلمي وكان ذلك كله حسداً وغيظاً بحتاً .

وحكى ابو حيان قال : حضرت مائدة الصاحب ابن عباد فقدمت مضيرة فامعنت فيها فقال لي يا أبا حيان انها تضر بالمشايخ فقلت ان رأى الصاحب ان يدع التطبب على طعامه فعل فكأني القمته حجراً وخجل واستحيا ولم ينطق الى ان فرغنا .

الصاحب والهاشمي الاعمى

كان الصاحب في صغره اذا اراد المضي الى المسجد ليقرأ أعطته أمه ديناراً ودرهماً في كل يوم وقالت له تصدق بهذا على اول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في شبابه الى ان كبر فصار يقول للفراش كل ليلة اطرح تحت المطرح ديناراً ودرهماً لئلا ننساه فبقي على هذا مدة ثم ان الفراش نسي ليلة من الليالي ان يطرح له الدرهم والدينار فانتبه وصلى وقلب المطرح ليأخذ الدرهم والدينار ففقدهما فتطير من ذلك وظن انه لقرب اجله فقال للفراشين خذوا كل ما هنا من الفراش واعطوه لأول فقير تلقونه حتى

يكون كفارة لتأخير هذا فلقوا اعمى هاشمياً على يد امرأة فقالوا تقبل هذا فقال ما هو فقالوا مطرح ديباج ومخاد ديباج فاغمي عليه فاعلموا الصاحب بامره فاحضره ورش عليه ماء فلما أفاق سأله فقال اسألوا هذه المرأة ان لم تصدقوني فقالوا له اشرح فقال انا رجل شريف لي ابنة من هذه المرأة خطبها رجل فزوجناه ولي سنتان آخذ القدر الذي يفضل عن قوتنا اشتري لها به جهازاً فلما كان البارحة قالت امها اشتهيت مطرح ديباج ومخاد ديباج فقلت من أين لي ذلك وجرى بيني وبينها خصومة الى ان سألتها ان تأخذ بيدي وتخرجني حتى امضي على وجهي . فلما قال لي هؤلاء هذا الكلام حق لي ان يغشى عليّ . فقال الصاحب لا يكون الديباج الا مع ما يليق به ثم اشترى له جهازاً يليق بذلك المطرح واحضر زوج الصبية ودفع اليه بضاعة سنية[1]

هو ودينار المجوسي

قال ياقوت : حدث الوزير ابو العلاء بن حسولي قال كان دينار المجوسي صدرا في ديوان الري وكان مدنرا مدرهما

(١) بغية الوعاة للسيوطي ص ١٩٦

مولا فكتب رجل الى الصاحب :

لم لا يفرق في ديوان عسكره كافي كفاة الورى دينار دينار
فان ايسر مافي قطع شأفته تطهير ديوانه من عابدي النار

فقبض عليه وصادره واستوفى منه مالاً عظيماً والسبب في ذلك البيتان .

هو ومتشاعر

انتحل بعض المتشاعرين بحضرة الصاحب شعراً له وبلغه ذلك فقال ابلغوه عني :

سرقت شعري وغيري يضام فيه ويخدع
فسوف اجزيك صفعاً يكد رأساً واخدع
فسارق المال يقطع وسارق الشعر يصفع

فاتخذ الليل جملا وهرب من الري

علمه وادبه

اراد الصاحب ان يسير على سنن استاذه ابن العميد حذو القذة بالقذة في السياسة والعلم والادب فكان له ما اراد وفوق ما اراد في العلوم الشرعية واللسانية واخطأه التوفيق في علوم الحكمة كما انه قصر عن شأو ابن العميد في المواهب الفطرية كالرفق والكياسة وبعد النظر في امور السياسة .

فاق الصاحب استاذه ابن العميد في العلوم الشرعية فقد كان طويل الباع في الحديث فانه سمع الحديث واملى . قال السمعاني في كتاب الانساب : سمع الصاحب الاحاديث من الاصبهانيين والبغداديين والرازيين وحدث وكان يحث على طلب الحديث وكتابته ثم روى عن ابن مردويه انه سمع الصاحب يقول من لم يكتب الحديث لم يجد حلاوة الاسلام .

وقال ابو الحسن علي بن محمد الطبري الكيا : لما عزم الصاحب ابن عباد على الاملاء وهو وزير خرج يوماً متطلساً متحنكا بزي اهل العلم فقال قد علمتم قدمي في العلم فاقروا له بذلك فقال وانا متلبس بهذا الامر وجميع ما انفقته من صغري الى وقتي هذا من

مال ابي وجدي ومع هذا فلا اخلو من تبعات اشهد الله واشهدكم اني تائب الى الله من ذنب اذنبته . واتخذ لنفسه بيتاً وسماه بيت التوبة ولبث اسبوعاً على ذلك ثم اخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته ثم خرج فقعد للاملاء وحضر الخلق الكثير وكان المستملي الواحد ينضاف اليه ستة كل يبلغ صاحبه فكتب الناس حتى القاضي عبدالجبار .

وكان الصاحب يقول شاركت الطبراني في اسناده ويقال انه نال من البخاري وقال هو حشوي لا يعول عليه . وكان يقتبس من الحديث في شعره كقوله :

ومهفهف يغني عن القمر ... قمر الفؤاد بفاتن النظر
خالسته نفاح وجنته ... من غير ابقاء ولا حذر
فاخافني قوم فقلت لهم ... (لاقطع في ثمر ولا كثر[1])

وقوله :

قال لي ن رقيبي ... سئ الخلق فداره
قلت دعني وجهك (الجنـ ... ـة حفت بالمكاره)

---

(١) الكثر بفتحتين جُمَّار النخل وهو شحمه الذي في وسط النخلة . النهاية لابن الأثير .

وقوله :

اقول وقدرأيت له سحابا من الهجران مقبلة الينـا
وقدسحت عزاليها بهطل (حوالينا الصدودولا علينا)

واهدي اليه هدية اهدى منها الى ابي سعيد الشيبي وكتب معها رقعة مصدرة بهذا البيت :

رويت في السنة المشهورة البركة ان الهدية في الاخوان مشتركة

وكان عالمـاً بالتوحيـد والاصول والف فيهما ، من ذلك كتاب مختصر اسماء الله تعالى وصفاته وكتاب نهج السبيل في الاصول وكتاب الامـامة في تفضيل علي بن ابي طـالب وتصحيح امامة من تقدمه وكتاب الزيدية .

وكان ذا بصر بالخلاف بين الفرق والائمة قال ابن العماد في شذرات الذهب: قال الصاحب في وصف الائمة الثلاثة المتعاصرين الباقلاني نار محرق وابن فورك صل مطرق والاسفرائيني بحر مغرق قال ابن عساكر كأن روح القدس نفث في روعه بحقيقة حالهم .

وكذلك فقد كانت للصاحب مشاركة في التاريخ ولا بدع فالتاريخ من اعظم عناصر الادب وله فيه مؤلفات ذكرها ياقوت في معجم الادباء وهي: كتاب المعارف في التاريخ وكتاب

الوزراء و كتاب اخبار ابي العيناء و كتاب تاريخ الملك واختلاف الدول و كتاب الزيدين ·

اما علمه باللغة فربما كان اجل علومه واوسعها فقد الف باللغة كتاب المحيط في عشرة مجلدات و كتاب جوهرة الجمهرة · وهو معدود من الثقات في رواية اللغة وقد جعله الثعالبي احد ائمة اللغة الذين اعتمد عليهم في كتابه فقه اللغة امثال الليث والخليل بن احمد وسيبويه وخلف الاحمر وثعلب والاصمعي وابن الكلبي وابن دريد واشباههم وروى عنه في ذلك الكتاب فصل ترتيب الشرب وباب الحجارة [1] وعده الانباري من علماء اللغة فافرد له ترجمة في كتابه طبقات الادباء النحاة و كذلك السيوطي ترجم له في بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ·

ولقد زين له علمه بغريب اللغة ان يغرب في بعض احاديثه اغرابا يدل على شدة التنطع والتقعر قال ابو حيان التوحيدي قال الخليلي سمعت الصاحب ابن عباد يقول للتميمي الشاعر كيف تقول الشعر وان قلت كيف تجيد وان اجدت فكيف تغزر وان غزرت فكيف تروم غاية وانت لا تعرف ما الزهزيق

(١) ص ١٦٨ و ٣٠٥ من فقه اللغة

وما الهبلع وما العثلط وما الجلعلع وما القهقب وما القهبلس وما الخيسوب وما الخزعبلة وما القذعملة وماالعرموطوماالجرقاس وما اللؤومس وما النعثل وما الطريال وما الفرق بين العرم والردم والحدم والحذم والقضم والخضم والنضج والرضج والفصم والقصم والقصع والفصع وما العبنقس وما العكنفس وما الوكال والرومل وما الحيتعور واليستعور وما الستعون وما الجردون وما الحلزون وما الفقندر وما الجمليل قال الشاعر :

جاءت بخف وحنين ورحل جاءت تمشي وهي قدام الابل

مشي الجمليلة بالخرق النقل

ورأيت بعض الجهال يصحف و يقول « وحنين وزجل » قال ابو حيان قلت للخليلي من عني بهذا قال ابن فارس معلم ابن العميد ابي الفتح قال الخليلي فهذا الضرب من الكلام يجب ان يفتخر بمثله و يتدقق به ؟ انك يا ابا حيان لو رأيته يمشي وهو يهذي بهذا وشبهه و يتفيهق و يلوي شدقيه عليه و يقذف بالبصاق على اهل المجلس لحمدت الله على العافية مما بلي هذا الرجل به . و بعد فما بين الشاعر وهذا الضرب الشاعر يطلب لفظاً حراً ومعنى بديعاً ونظماً حلوا وكلمة رشيقة ومثلاً سهلاً ووزناً مقبولا .

على ان الصاحب لم يكن يستعمل مثل هذا في رسائله أو في شعره بل كان مشهوراً باختيار اللفظ المأنوس السهل على طريقة ابن العميد فاذا صحت رواية ابي حيان كانت على سبيل ادلال الصاحب بمعرفة غريب اللغة ووحشيها .

وكان الصاحب ذا قدم راسخة في علم العروض وقد الف فيه كتابين الاقناع في العروض وكتاب نقض العروض .

هذا ومع انه كان مأخوذاً بعلوم العرب وأدبهم ومعروفاً بانحرافه عن الفلسفة والعلوم الدخيلة فان آثاره تدل على ان في ثقافته عنصراً من العلوم الدخيلة التي ترجمت الى العربية فله رسالة في الطب يذكر فيها آراء جالينوس وبقراط ويستعمل كلمة الكيموسات كما أن له رسالة ثانية استعمل فيها كلمة الماليخوليا ومن شعره ما كتب به الى ابي الحسين الطبيب مداعباً

انا دعوناك على انبساط والجوع قد أثر في الاخلاط
فان عسى ملت الى التباطي صفعت بالنعل ففا بقراط

وكذلك فقد نوه بحكمة ارسطاطاليس وافلاطون في رسالته الكشف عن مساوئ شعر المتنبي واستعمل بها كلمة ارثماطيقى وموسيقى . قال بتهكم بالمتنبي . ...« واحتذى هذا

الفاضل على مثالهم وطرقهم فقال :

وانت ابو الهيجا بن حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم ووالد
وحمدان حمدون وحمدان حارث وحارث لقمان ولقمان راشد

وهذه من الحكمة التي ذخرها ارسطاطاليس وافلاطن لهذا الخلف الصالح وليس على حسن الاستنباط قياس .

وقال : ومن عيون قصائده التي تحير الافهام وتفوت الاوهام وتجمع من الحساب مالا يدرك بالارثماطيق و بالاعداد الموضوعة للموسيقى :

احاد ام سداد في احاد لييلتنا المنوطة بالتناد »

الصاحب في علمه وطريقة تفكيره اقرب الى اهل الظاهر مع انه معتزلي في الاصول لذلك فهو شديد على من خالفه في الرأي في مسائل الدين والأدب .والغريب في امره انه وهو الأديب الكاتب الشاعر — وعمود فن الأديب الذوق — ينكر على المتصوفة ذوقهم و يعتبر كلامهم مفسدة للشعر . قال ينتقد المتنبي : « و كنت اعجب من كلام ابي يزيد البسطامي في المعرفة والفاظه المعقدة وكلماته المبهمة حتى سمعت قول شاعرنا في صفة الفرس : « سبوح لها منها عليها شواهد » .

وقال : ومن شعره الذي يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة الموجودة في طبعه بيت رقية العقرب اقرب الى الافهام منه وهو :

نحن من ضايق الزمان له فيـ ـك وخانته قربك الايام

فان قوله « له فيك » لو وقع في عبارات الجنيد والشبلي لتنازعته المتصوفة دهراً بعيداً . »

وكأن هذا الرأي اصبح صواباً بعد الصاحب حتى قال الثعالبي في يتيمة الدهر : ومن معايب شعر ابي الطيب ومقابحه امتثال الفاظ المتصوفة واستعمال كلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقة . هذا والصاحب فارسي النسب والفرس شعب لقي التصوف في نفوسهم مرعى خصيباً فنبغ منهم اكبر شعراء المتصوفة في الاسلام كجلال الدين الرومي والحافظ الشيرازي .

. . . .

الزمن الذي اظل الصاحب والبيئة التي عاش فيها والفطرة التي فطر عليها ذللت له اسباب التعمق في العلم والادب

قال في مقدمة رسالته الكشف عن مساوئ شعر المتنبي : « وها انا منذ عشرين سنة اجالس الشعراء واكاثر الادباء

واباحث الفضلاء ، وعشرين أخرى آخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد واكتب عن اصحاب احمد بن يحيى ثعلب فما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته و ينقده نقد جهابذته غير الاستاذ الرئيس ابي الفضل ابن العميد »

واجتمع عند الصاحب من الكتب ما لم يجتمع عند غيره فقد كانت خزانة كتبه فريدة و كان يتولاها ابو محمد الخازن الشاعر[1] قال ياقوت في معجم الأدباء[2]: كان صاحب خراسان الملك نوح بن منصور الساماني قد ارسل الى الصاحب في السر يستدعيه الى حضرته و يرغبه في خدمته وبذل البذول السنية فكان من جملة اعتذاره ان قال كيف يحسن لي مفارقة قوم بهم ارتفع قدري وشاع بين الانام ذكري ثم كيف يحمل اموالي مع كثرة اثقالي وعندي من كتب العلم خاصة مايحمل على اربعمائة جمل او اكثر .

قال ابو الحسن البيهقي وانا اقول بيت الكتب الذي يالري على ذلك دليل بعد ما احرقه السلطان محمد بن سبكتكين فاني طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك

(١) بتيمة الدهر ج ٣ ص ١٤٨ (٢) ج ٢ ص ٣١٥

الكتب عشر مجلدات . فان السلطان محموداً لما ورد الى الري قيل له ان هذه الكتب كتب الروافض واهل البدع فاستخرج منها كل ما كان في علم الكلام وامر بحرقه .

وكان الصاحب اذا سافر استصحب معه من كتبه ما يحمل على ثلاثين جملاً فلما وصل اليه كتاب الأغاني لابي الفرج الاصبهاني استغنى به عنها .

وكان اهل العلم والادب يتوسلون الى الصاحب بتقديم مؤلفاتهم اليه ويعتبرون قبوله اياها ورضاه عنها شهادة بجودتها قال ابن فارس في مقدمة كتابه الصاحبي : « هذا الكتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها وانما عنونته بهذا الاسم لاني لما الفته اودعته خزانة الصاحب الجليل كافي الكفاة عمر الله عراص العلم والادب والخير والعدل بطول عمره تجملا بذلك وتحسناً اذ كان ما يقبله كافي الكفاة من علم وادب مرضياً مقبولاً وما يرذله او ينفيه منفياً مرذولاً ولان احسن مافي كتابنا هذا مأخوذ عنه ومفاد منه

وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في خطبة كتا تهذيب التاريخ : « وهذا كتاب قصدت به غرضي دين ود

اما الدين . . . واما غرض الدنيا فان اقيم بفناء الصاحب الجليل ادام الله بهاء العلم بدوام ايامه من يخلفني في تجديد ذكري بحضرته وتكرير اسمي في مجلسه ومن ينوب عني في مزاحمة خدمته على الاعتراف بحق نعمته وعلمت اني لااستخلف من هو امس به رحماً واقرب منه نسباً وارفع عنده موضعاً والطف منه موقعاً واخص به مدخلاً ومخرجاً واشرف بحضرته مقاماً وموقفاً من العلم الذي يزكو عنده غراساً فيضعف ريعاً ويحلو طعماً ويطيب عرفاً ويحسن اسماً فاخترت لذلك هذا الكتاب ثقة بوجاهته وعلما بقرب منزلته وكيف لا يكون عنده وجيها مكينا ومقبولا قرينا وانما هو نتاج تهذيبه وثمرة تقويمه وجناء تمثيله وريع تحريكه فلولا عنايته لما صدقت النية ولولا ارشاده لما نفذت الفطنة ولولا معونته لما استجمعت الآلة وما يبعد به عن ايثار العلوم وتعظيمها وعن تقديمها وتقريبها وهو الذي نصبه الله لها مثالاً واقامه عليها مناراً وجعله لها سنداً ولاحيائها سبباً »

وما ظنك بمن يقتبس ابن فارس والقاضي الجرجاني من علمه وادبه والاول امام في اللغة والادب والثاني من ائمة الدين والادب وهو من ابعد الناس عن المحاباة وهو القائل :

ولم اقض حق العلم ان كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما

وابو بكر الخوارزمي على جلالة قدره وسعة علمه واعتداده بنفسه يعترف بالاخذ عنه بقوله :

واني و الزميك بالشعر بعدما تعلمته منك الندى والفواضلا

كملزم رب الدار اجرة داره ومثلك أعطى من طريق نائلا

كتبه

الصاحب من اكثر الوزراء تصانيف ولقد فاق استاذه ابن العميد من حيث عدد المؤلفات وهو لم يقتصر على فن بل الف في عدة انواع كالدين والتاريخ واللغة والادب والاخبار ولو سلمت كتبه من الضياع لكانت مجموعة قيمة تضاف الى المكتبة العربية ولكن القسم الاعظم منها مفقود او لا يعلم مكان وجوده وما بقي لا يزال مخطوطاً في دور كتب الشرق والغرب ولم يطبع منها الا رسالة واحدة سيأتي الكلام عليها وفصول من رسائله ومقطعات من شعره مبثوثة في كتب الادب والتراجم على سبيل الاختيار والتمثل والاستشهاد. وهذه اسماء كتبه :